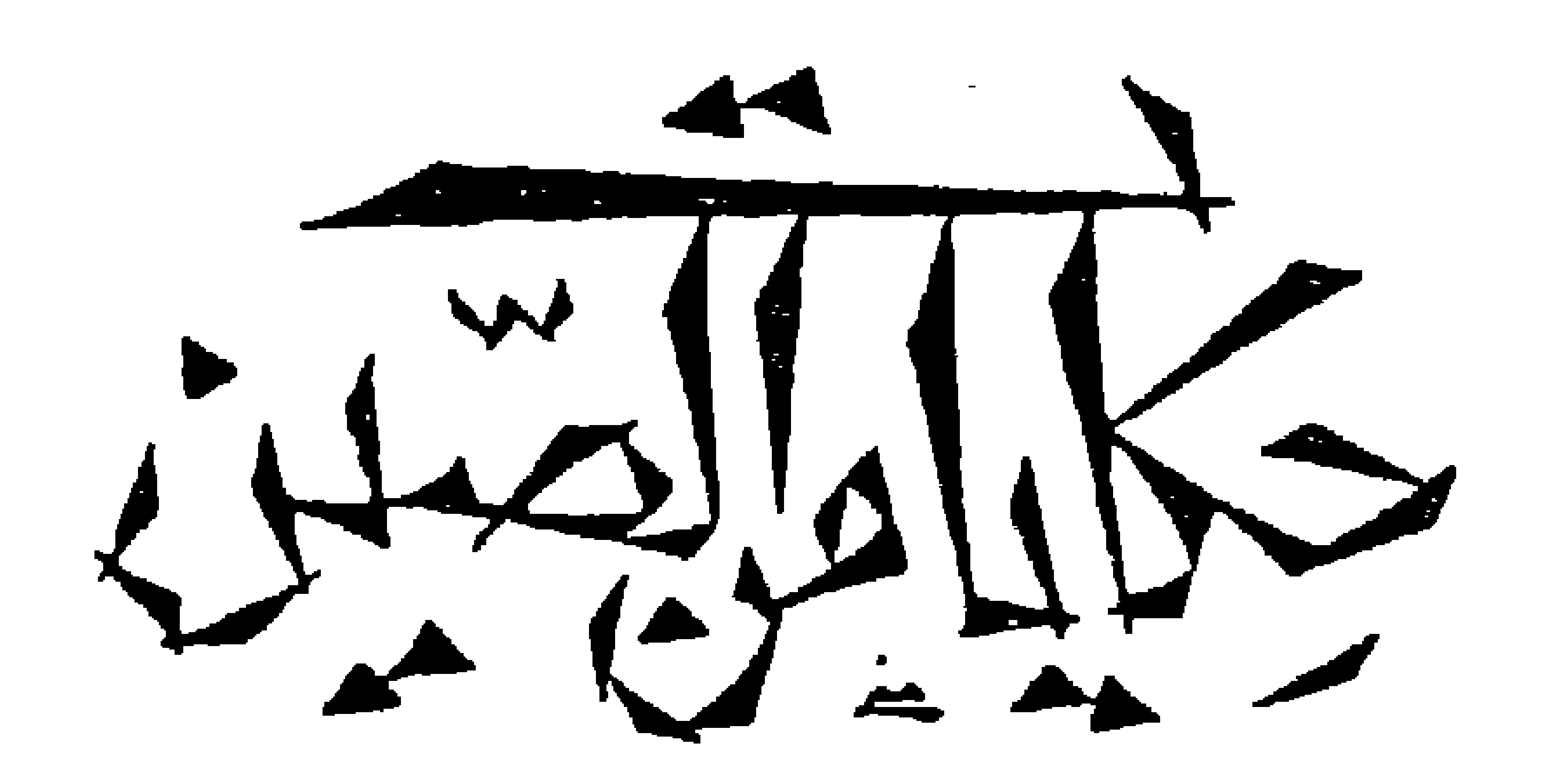


كتبها بالإنجليزية
الكاتب الصيني
ت . ك . تشـ - و

وعربها
عبده حسن الزيات
المحامي

« اطلبوا العلم ولو فى الصين »
حديث شريف

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٥ — ١٩٤٦



كتبها بالإنجليزية

الكاتب الصينى

ت. ك. تشـو

وعربها

عبده حسن الزيات

المحامى

« اطلبوا العلم ولو فى الصين »

حديث شريف

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٥ — ١٩٤٦

إلى التضامن فضيلةً وفكرةً

إلى التضامن أساسًا للأسرة ، وأساسًا للمجتمع الوطني والمجتمع الدولى ، وضمانًا للأمن ضد دعوات الهدم .

ثم إلى شقيقي الأستاذ محمد حسن الزيات الذى أهدى إلىّ أصل هذا الكتاب فأوحى إلىّ فكرة هذا الإهداء .

عبده حسن الزيات

مقدمة التعريب

« . . . تجيئني كذلك — شكراً لك — مجلة الكاتب المصرى ؛ وصلت أمس وقرأت فيها مقال الدكتور طه عن النساء فى كتابة ڤولتير . رأيت فى المقالة جديداً — على الأقل بالقياس إلىّ — ذلك هو قول ڤولتير إنه أخذ بعض قصصه عن العربية ، تُرجمت لبعض سيدات القصر الفرنسى مع ألف ليلة . والدكتور طه لا يصدق ڤولتير تصديقا تاما ولا يستسلم ، فيما يظهر ، إلى ما يقول . أما أنا فأصدق وعندك برهان قوله : فقد قرأت عرض الدكتور طه للقصة التى يصور بها ڤولتير وفاء النساء ، وفاء المرأة التى تسخط لأن أخرى من بنات جنسها قد حوّلت النبع عن مجراه لتتخلص — على طريقة مفتى دمياط — من يمين حلفته لتبقين وفية لزوجها الفقيد ما بقى النبع يجرى مجراه ، ثم قصة هذه المرأة الساخطة وقد ابتُليت فإذا بها أقل وفاء . وهذه القصة ليست عربية الأصل وليست — مثل كثير من قصص ألف ليلة وليلة — بهلوية (فارسية) ولكنها قصة صينية تجد ملخصاً لها فى الكتاب الصغير الذى أرسلته إليك واسمه « حكايات من الصين » .

القصة فيه عن أستاذ صينى عظيم يقبل على زوجته ذات مساء مضطربا فإذا سألته أخبرها أنه مر بقبر طرىّ وبامرأة جميلة تحاول تجفيف القبر بمروحتها . وقد سألته أن يعينها بقوته على تجفيف القبر ففعل ، ثم سألها فعلم أنها كانت قد نذرت لزوجها أن لن

تتزوج ما دام قبره نديا ، وانها تريد الزواج وتريد الخلاص من النذر معاً . والأستاذ جزع لأنه قد فقد ثقته بوفاء النساء ، وزوجه تجادله تخبره أن الشذوذ لازم لكل قاعدة وأن من النساء الوفية ومنهن من تعجز عن الوفاء . ويموت الأستاذ يوم يقبل أمير صيني يلتمس التلمذة عليه ، وحين يعلم أنه قد مات يلتمس البقاء في منزله مدة يستنشق فيها الجو الذى عاش الأستاذ فيه ، وتأذن الزوجة ثم تريد أن تتزوجه ويصيبه مرض لا يكون شفاؤه إلا بمخ حديث ولا يكون في متناولها من الأمخاخ الحديثة غير مخ الأستاذ زوجها الراحل فتذهب إلى القبر لتشج رأس زوجها وتستخرج مخه فإذا هو ناهض في قبره قد علم مبلغ وفاء النساء[1] .

هذه القصة هي بعينها — محوّرة — قصة ڤولتير . أما كيف جاءت من الصين إلى باريس فليس أمامنا إلا الفروض : كان بين الصين وبين إيران تجارة ورحلات عهد الساسانيين وترجم العرب في القرن الثاني كثيراً من القصص الفارسي والقصص الذى وصل إلى الفرس من الهند مثل كليلة ودمنة ومن اليونان مثل الشيخ صنعان وبنت النصراني ، ولم نكن نعرف حتى اليوم أنه ترجم من الفارسية قصص صينية الأصل فهل ترجم مترجمو العرب هذه القصة عن البهلوى وكانت فيه مترجمة عن الصينية ، وهل نقلت بعد ذلك من العربية مع ألف ليلة إلى الفرنسية للبلاط كما يقرر ڤولتير ؟ »[2].

---

(١) هذه القصة هي المسماة قصة تشونج تزو ، وقد جعلناها أولى القصص في التعريب .

(٢) هذه الفقرات أثبتناها كما وردت في خطاب أخوى سريع لم يعد للنشر محتفظين لها بطابعها الحميم وبجو الألفة الأصيل دون تنقيح يغير هذا الجو .

***

منذ أن تلقيت هـذه الـكلمات فى خطاب من شقيق الأستاذ محمد الزيات ظللت أترقب هـذا الـكتاب الذى أرهص به واعتبرته عندى قبل أن يصل .

ثم انتهى إلىّ الـكتاب الموعود أو المقصود فإذا به كتيب بل كتيب صغير . وأخذت أقرأ حكاياته مستروحاً منها طعماً خاصاً متميزاً واستوت فى نفسى نيـة ترجمته ليكون الى جوار « حكايات من الهند » « حكايات من الصين » ونودى بيوم الإثنين ٤ مارس ١٩٤٦ يوماً للإضراب العام فحملت الـكتيب معى ظهر الأحد ترافقه أوراق بيض كأنها الآنيـة تستعد لاستقبال الرطب الجنىّ وفى نفسى نشوة أن أستغل الإضراب بالعمل وأن أونس هذا الانقطاع الموقوت عن العالم بهـذا الاتصال المحبوب بعالم سحيق سحيق ودنيـا قائمة بذاتها يقال لها الصين : ولـكن الإضراب كان إضراباً وقد حقت كلمة الشعب وحققت ففقدت الـكتاب ولا أدرى إلى الآن أين فقدته ولـكنى أدرى أنى أحسست لوعة شديدة وخيبة أمل مرة حين نهضت

نفسي تستأديني اللذة الموعودة فبحثت وبحثت وكان بحثي عبثا ! . .

لجأت إلى أخي اطلب نسخة أخرى وكانت الأولى هدية على غير انتظار فأصبحت الثانية سؤالاً متعباً للمسئول لأن الطبعة فقدت أو كادت ، فلا بد من إلحاف خطاب بعد خطاب واتصال مكتبة بمكتبة ، ليصل « بدل الفاقد » وتكون بين يدىّ هذه النسخة التي أقدم الآن ما ترجمته عنها .

والترجمة مضنية ولكنها تكاد تكون إغفاءة لذيذة بالقياس إلى كتابة أصيلة تأتى بالجديد وتنشىء غير الموجود .

هذا هو شعوري الصادق ، إذ أفرغ من هذه الترجمة ، واستقبل الواجب الشاق ، واجب التقديم لما ترجمت . إنني لن أرضى عن هذه المقدمة بعض الرضى إلا إذا حللت فيها هذه الحكايات بعض التحليل ، وأقمت موازنة بينها وبين ما سبق أن ترجمته من حكايات هندية .

أما التحليل فقد نهضت عني ببعض عبئه هذه المقدمة الإنجليزية التي ترجمتها . ولكنها مع ذلك لا تعفيني من

واجبي كل إعفاء . ولست أدرى أيهما خير حين العجز : أن يهمل المرء أداء الواجب كل الإهمال أو ان يحاول أداءه محاولة العرجاء ليصور لنفسه وللناس أنه قد فعل شيئاً ؟

لقد غبر بي زمن كنت أرفض فيه مثل هذا الحل الثانى ، فإما العمل الكامل وإما الامتناع ، إما الصدور وأما القبور ، ولكن تقدم السن ومرارة التجربة ، كفيلتان أن تجنحا بالمرء إلى تغيير هذا المنهج وأن تفهماه بأسلوب لا تنقصه الصرامة ولا يعوزه التهكم أن العمر ليس عمرين وأن شيئاً خير من لا شيء ، وان الناس لو أخذوا نفوسهم بهذا المعيار الشديد لما صنعوا شيئاً ولما كانوا فى الناس شيئاً .

على بركة الله إذن نلقى نظرة الى هذه الحكايات أو نسجل بعض ما أثارته فى النفس من خطرات .

والخاطرة الأولى انى شممت فى هذه الحكايات أو أكثرها الشذى المصرى . ان القدمة الإنجليزية تضع أصبعها على أثر التعاليم البوذية أو الكونفوشية أو الطاوية ، ولكنى لن أعمق الأمور هذا التعميق ، بل أقنع بأن

أسجل ما انتشر فى نفسى وأنا أقرأ الحكايات من شعور الالفة ، فإنها لم تقع من ضميرى موقع الطارئ الغريب ، ولكنها نزلت منها منزل الإلف أو الجار القريب وإن شط مزاره ونأت حتى الصين دياره !

هذه حكاية «تشاو طيب القلب» ، ألم نسمع فى حداثتنا من الأقاصيص ما يشبهها فى الروح على الأقل ؟ ألم نرحل مثل هذه الرحلات ونقابل فى طريقنا ضروباً من هذه الطيور العجيبة ونختتم رحلتنا بفضل من الله يكافىء به طيبة قلوبنا وعناءنا فيهدينا حياة سعيدة موفورة نحياها « فى الثبات والنبات ونخلف الصبيان والبنات » ؟

وهذه حكاية « خوخة من جنة الأم الملكية » تكاد تشترك فى بعض السمات مع حكاية « تشاو » المذكورة ، تشترك معها على الأقل فى هذا الإشفاق الذى تملأ به قلوبنا رقة «لتشاو» أو « للولد الصغير » ، ثم فى النهاية السعيدة التى تنتهى بها الحكايتان لتطمئن نفوسنا بعد جزع ونحمد الله على أن المحسن لم يلق جزاء سنمار ، وأن البرىء لم يذهب ضحية رخيصة .

وبهذا أو بعضه تمتاز وتسمو حكاية ثالثة لو كان التقديم للتفضيل لجاء حديثها أولاً هي حكاية « الخضر الصغير » . ولست أدرى أصاحبني التوفيق حين وضعت هذه الترجمة لعنوان Little Evergreen ، ولـكني أدرى أن قصة هـذا الغلام قصة مؤثرة تتصل بالقلب وتستأثر به ؛ وليست مجرد قصـة شيقة تتخذ حاماتها من الريح الصرصر العاتية ، ومن المـارد الجبار الذى يسكن هوة سحيقة تقذف إليها بالحجر فلا تكاد تسمع لوقعه ركزاً . إنها قصة شرقية بالثلث ، ولـكنها مع ذلك قصة إنسانية توجع القلب وتشعّب الفؤاد فيتوزع بين مختلف الآراء وهو يتابع الحوادث ويسمع أم الغلام تطلب منه أن يسعى لإنقاذ بنت الملك فيكاد يتمنى شفقةً على الغلام أن يرفض ويكاد يتمنى شفقة على الفتـاة أن يقبل كما انشعب فؤاد الخضر نفسه يكاد أن يرفض الذهاب إشفاقاً على أمه المحبوبة وهو عائلها الوحيد ، ثم يرضخ إطاعة لأمر أمه ، وإطاعة لأمر قلبه الرحيم الذى دعاه إلى إنقاذ الأميرة الضائعة .

هنا نسمع المنادى ينادى فى المملكة بأمر الملك ، كما سمعناه فى « حواديتنا » الطفلة ، وهنا نرى الخضر الصغير يسعى ويكافح ويكاد يشارف الهلاك . ثم يوفق إلى إنقاذ الأميرة من براثن مارد قاس مستبد ، فإذا آن له أن يخرج من الحفرة ، آثر الأميرة على نفسه ، وطلب إليها أن تتشبث وحدها بالحبل ، فإنه يخشى إن هو تشبث به أيضاً ألا يطيقهما معاً ؛ ويرتفع الحبل بالأميرة ويتلقاها أبواها هانئين ، ولكن هذا الإيثار يوشك أن ينقلب على الخضر وبالا ، فان طامعاً فى يد الأميرة يقطع الحبل ، ويشارف الخضر الهلاك من جديد . ولكن فى تقدير الروح الشرقى ألا يندم على فعل الخير أحد ، فليقيض للفدائى الشهم أن ينجو ، وليقيض له أن يكون للأميرة بعلا ليعيش معها فى ثبات ونبات ولينجب منها البنين والبنات !

* * *

وهذه الفكاهة الهادئة العذبة التى نلقاها فى حكاية

«سراب التلقين» ، وفى حكاية الفياشين ليست غريبة عنا ، بل هى وثيقة الصلة بنا ؛ والحكاية الثانية على الأقل حكاية مصرية أو متمصرة مشهورة متداولة فى الأسواق والمقاهى مع اختلاف بسيط فى الأسماء ، فالطبلة مثلا تقابلها عندنا القرعة ، والبقرة يقوم بدلا منها الإناء الكبير الذى تطهى القرعة فيه .

بيد أن مقدار التشابه ليس واحدا بالقياس إلى جميع هذه الحكايات ، فإن حكاية «ميتتان غريبتان» مثلا أبعد عن نفوسنا ، وأكاد أقول أبغض إليها أيضاً ، لأنها على الضد من الحكايتين السابقتين ، تبدأ بالسرور وتنتهى بالمأساة . ولكن ترجمة هذا الضرب من الحكايات ليس أقل نفعاً ، بل لعله أولى بالتقديم لأنه أعون على تكوين الصورة الدقيقة للعقلية الصينية والجو الصينى ، فأصدق فى التعريف بهذه البلاد النائية الدانية التى قد تفصلنا عنها أبعاد شاسعة وتصلنا بها وشائج الاسلام وإحساس الحكمة والتدين وبعض تشابه فى الطبيعة السهلة الخصبة ، وفى

مرارة الخنوع لنير الغريب المغير ، وفى إحساس الكريم المستذل بهوان يومه وكرم محتده ، والشك والأمل معاً فى غده .

* * *

وإلى جوار الصين تقوم الهند ، وإلى جوار حكمة الهنود قامت حكمة الصين ، والخصب هو الخصب ، والنماء هو النماء ، والشرق هو الشرق .

وقد تاح لمترجم هذه الحكايات أن يترجم قبلها حكايات من الهند فمن الملائم أن يعقد الموازنة بين هذه الحكايات وتلك . ولكن هذه الموازنة تقتضى استعراضاً لحكايات الهند ، وإنها لتناهز فى الجزءين مائة حكاية وسبعين حكاية ، فلأقنع إذن بتسجيل الخاطرة الهامة المميزة : إن أثر الدراسة فى الحكايات الهندية أظهر ، وتفسير هذا أن مؤلفها المعاصر قد صنع أغلبها بنفسه متأثراً بدراساته وغاياته ، أما الحكايات التى نحتها عن الاساطير الهندية القديمة فهى تمثل الأقلية ، ولكنها مع ذلك تتميز

من هـذه الحكايات الصينية الحاضرة بكثير من المميزات لعل أهمها أن حظ الحكايات الهندية من الحكمة أوفر فهى تصدر عن الحكمة غريزة وإرادة وتعلما ، وليس كذلك ، أو ليس بهذا القدر شأن هذه الحكايات الصينية التى تنضح بالطيبة ، وتنشر الصفاء ، وتقيم التضامن الإنسانى ، وتبشر بالأمل ، وتجعل الإحسان جزاء الأحسان ، أكثر مما تعنى بتشريح النفس البشرية تشريحاً يثير رائحة النتن أو يستدعى مرارة السخر ، أو يقر فى النفس هدوء اليأس الحزين .

إن الهند أقرب الينا ، ولكنى لا أدرى لماذا وجدت هـذه الحكايات الصينية أقرب إلى حكايات طفولتنا وحكايات مزاحنا ، ولست أحب أن أجازف بالبناء على أساس غير كاف وغير سليم . فلعل كلا من النخبتين ليست أكثر من اختيار خاضع لذوق الكاتب الهندى أو الكاتب الإنجليزى فهى بعيدة إن صدق هذا الاحتمال عن أن تكون نموذجا جامعا مانعاً يصلح لتشييد قضيـة سليمة متماسكة ، فلأجتزىء بأن اعرض هذه الخاطرة مشروعاً لقضية

أو مشروعاً لبحث ، أو حفنات من التربة نخضعها لفحص الآلات والعلماء .

* * *

لقد قلت فى مقدمتى للمجموعة الثانية من حكايات الهند : « إذا كانت الترجمة عن الآداب الأجنبية الرفيعة غير المنحطة أمراً حسناً مندوبا إليه فإنها بالنسبة لآداب الشرقيين تكاد ترقى إلى مرتبة الفروض « وكلنا فى الهم شرق » ؛ لم يعد يليق ، بل لم يعد يحل أن نجهل أدبا عربياً أو شرقياً أو إسلامياً » ، وإنى أغتبط حقا أن يتاح لى — ومالى أبنى إلى المجهول ، والذى أتاح لى هو شقيقى الأستاذ محمد الزيات — أن أقدم هذه المجموعة من حكايات الصين .

إن مصادفات الظروف قد قضت بأن أبدأ كتابة هذه المقدمة ليل أمس فى قطار القاهرة — ميناء سعيد وأن أتمها اليوم فى مقعدى هذا على قرب من الميناء مستروحاً نسمات بحرينا العزيزين ، متمليا من منظر هذا الميناء ، الذى

يصل شرق العالم بغربه ، سارحاً بخيالى على طيف هـذه البحور إلى أرض الصين التى أنبتت هذه الحكايات محدثاً نفسى : أليست الترجمة هى القناة التى ابتدعها الإنسان لتصل الفكر البعيد بالفكر البعيد كما شقت هذه القناة لتصـل عالم بعالم ؟

وان المصادفات لتقضى أيضاً بأن أتم هذه المقدمة إلى جوار هذا الميناء الذى ينقل إلى الغربيين ما عند الشرقيين من خير وخيرات وما لديهم من ثمرات الحكمة وثمرات الأرض ليلقوا على ما قدموا شر الجزاء ، فلعل قبساً من نور الله أن يعمر الضمائر الخربة ، ولعل بصيصاً من هذه الحكمة الصينية أن يضىء طريق الضالين ، فيتاح للشرق ختام سعيد يكافىء إيثاره وحنانه وعناءه كما أتيح لـ « تشاو الطيب القلب » وكما أتيح « للخضر الصغير » .

ميناء سعيد فى مساء ١٦/٥/١٩٤٦

عبده حسن الزيات

مقدمة الأصل الانجليزى

الى القارئ

للصين تاريخ يبدأ منذ أربعة ألوف من الأعوام على وجه التقريب ، فمن الطبيعي أن يكون للصينيين عدد كبير من القصص ، ولكن من سوء الحظ أن الصور الرمزية الخرافية لم تحتل مكاناً هاماً فى الكتابات الصينية قديماً ، ولهذا بقى الاهتمام بتلك الكتابات ضئيلاً إلى أن نهض رجال الأدب منذ عهد قريب ينظمون الحكايات القديمة جميعاً ويُجِدّون لها طريفاً من القيم ، فصانت هذه الطريقة عدداً من القصص الصالحة ، ولكن عدداً آخر لا يقل عنها صلاحاً ، قد ضاع إلى الأبد .

وعلى كلٍ فإن ألوفاً من الحكايات الصينية ما زالت على قيد الحياة ، وليس الاختيار منها بالعمل اليسير .

وإن الغاية من هذا الكتاب هى تقديم حكايات تمثل

كلاًّ من الأنواع المختلفة لنهيء للقراء فكرة عامة عن هذا الميدان من الكتابات الصينية ولنيسر إجراء المقارنة الممتعة بين الحكايات الصينية وحكايات البلدان الأخرى .

* * *

ولقد اخترنا هذه المجموعة من :

(ا) كتب القصص القديمة المعتبرة مثل كتاب « القصص الكبرى قديمها وحديثها » لمؤلفه « باو — ونج لاو — جين » وكتاب « الحكايات العجيبة » لمؤلفه « پوسونج — لنج » .

(ب) ما يتذكره المؤلف من القصص القديمة التى سمعها بنفسه .

(حـ) حكايات العصر الحديث ، ونخص بالذكر منها الحكاية الأخيرة التى أسست على حكاية أنشأها « لوهوسن » الذى كانت وفاته منذ قليل خسارة كبيرة للآداب الصينية .

* * *

إن قيمة القصص الصالحة فى أنها ، على الضد من التاريخ الذى لا يعالج غير الحقائق ، تزودنا بأعمال الناس وأفكارهم ومشاعرهم ودعاباتهم بطريقة شائقة تجعلها أدنى إلى نفس القارئ ، وأقوى تأثيراً فيها من الحقائق الجافة . وإنه لخليق أن يحصل بهذه القصص من المعلومات عن أفكار أهل الصين وطرائق عيشهم مثل ما يؤديه إليه من العلم كتاب تاريخ إن لم تكن أكثر .

لقد كانت الصين أمة أديان : الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية ؛ ومع أن هذه العقائد لم تتأصل قط فى عقول الصينيين فإنها قد أثرت على تفكير الصين كلها ، وإنا لنقابل أفكار الطاوية فى قصة « شوانج الحكيم » و« غرس شجرة الكمثرى » كما نواجه البوذية فى « تشاو الطيب القلب » . أما كونفوشيوس فإنه لم يكترث بالكائنات الخالدة أو الأمور الخارقة للطبيعة ، بل زود الناس بتعاليم معقولة تبصرهم كيف يصبحون أخياراً وكيف يفعلون الصواب . وإن قصة « الخضر الصغير » تطلعنا على نموذج

من هـذه التعاليم حين نقرأ فيها شعوره الرقيق نحو أمه ورحلته المفعمة بالخطر لتخليص الأميرة . ولـكن من الملائم أن نلاحظ إلى ذلك قول أمه أن بوذا سيكون معهما وهكذا تلتقي الـكونفوشيوسية والبوذية ، فقـد كان مألوفاً عند الصينيين أن يؤمنوا في وقت واحد بأكثر من دين واحد فإن الـكلام الطيب والقواعد الصالحة لن يتعارض بعضها مع بعض .

وسـنرى فى قصة « ميتتان عجيبتان » أن الصينيين لا يهابون الموت كما نهابه فى الغرب لأنهم اعتبروه حادثاً طبيعياً .

ولقد كان الإحساس بأن من الخطأ أن تتزوج المرأة مثنى إحساساً عاماً شاملا لجميع البلدان ولـكن من المحتمل أنه كان على أشده فى الصين .

وأخيراً نرى ان قصة «نورا» تعطينا مثالا من الـكتابة الحديثة التي تعتبر ردّ فعل ضد الطرق والمعتقدات العتيقة وضد ما تستعمله الأمم الأخرى من القوة ظلماً للصين وغير

ذلك ؛ إنها مثل لتطور جديد كامل فى فن كتابة القصة فى الصين .

ولقد صب مستر ت . ك . تشو (تشوتا — كار) — الذى طبع فى انجلترا هذا العام مؤلفاه « أغنيات صينية » و« لاو تزوتاو تى تشنج » — هذه الحكايات فى الكلمات الثمانمائة والخمسين التى تكون « اللغة الإنجليزية الأساسية » حتى يتسنى لعدد كبير من الصبيان والبنات فى الأمم المختلفة أن يقرأوها ؛ وإنه ليرجو أن يكون قد وفق إلى صنع شىء ولو ضئيل فى سبيل إنشاء شعور طيب متبادل بين وطنه وسائر الأوطان .

س . ك . ا

— ١ —

قصة تشونج تزو

كان يعيش فى إقليم « تشو » حوالى سنة ٣٠٠ ق . م ، رجل يُدعى « تشونج تشو » أُسمِىَ فيما بعد « تشونج تَزو » أى « تشونج الحكيم » . شغل « تشو » ، لمدة ما ، مركزاً ذا سلطان فى بلدة صغيرة ، ثم اهتم بعد ذلك بتعاليم « لاوتزو » الحكيم الشيخ وأصبح محيطاً بها إحاطة كبيرة .

وحدث ذات ليلة أن رأى فى نومه أنه قد انقلب فراشة تمرح فى الفضاء سعيدة فأحسّ منذ هذه الرؤيا أنه سيغادر أرض الناس إلى أرض الخالدين حيث أستاذه ومن معه . ولم يمنعه من الذهاب فوراً إلا حب شديد لزوجته الشابة الحسناء لم يطوّع له التخلى عنها .

وذات يوم كان يسير فى سفح الجبال المحيطة بمنزله فرأى فى الطريق امرأة صغيرة السن تلتحف السواد وتجلس فى جوار قبر حديث على تربته مياه لمّا تجف

وفى يدها مروحة تهزها من فوقه .

دهش الرجل فخاطبها قائلا : « هلاّ تفضلت سيدتى فخبّرتنى مَن الميت ، وفيمَ الترويح بالمروحة ؟ »

قالت المرأة وهى تواصل عملها : « إنه جثمان الرجل الذى كنت قرناً له ولقد أحبّ كل منا صاحبه حباً جماً ، وكان صعباً على نفسه فراقى حين يموت فأمر أمره قبل موته ألاّ اقترن من غيره قبل أن يجف الثرى من فوقه ، ولكن يخيل إلىّ أن هذا الثرى المطلول لن يجف فإنى لأستحث بمروحتى جفافه » .

ابتسم تشونج وقال : « ان من السهل جداً أن نجفف الثرى وإنما يعجزك عنه ضعفك فدعينى انُبْ عنك » .

لم تكد تسمع المرأة هذا حتى نهضت وقدمت إليه المروحة فأخذها تشونج وأعاد إلى الأرض جفافها فى غير وقت متوسلا بما فيه من قُوىً خارقة .

فأشّعت بسمة سعيدة على ثغر المرأة وقالت : لقد تلطفتَ فأعنتنى على أمرى فتقبلْ منى هذه المروحة عرفاناً

لفضلك » ، ثم انصرفت لشأنها سعيدة ؛ أما « شونج » فقد اشمأز من مسلكها وآب إلى بيته وهو يلقى على المروحة نظرات حزينة متكررة .

ولم تكن زوجته لتدرى مما جرى شيئاً فانهالت عليه بالأسئلة حول مصدر هذه المروحة ومصدر ما يبدو عليه من حزن فقص عليها تشونج قصة ما رأى وما صنع وأردف قصته بقوله :

« وهذه هى المروحة التى كانت تستخدمها لتجفيف الثرى والتى وهَبَتْنيها كِفاءَ معونتى لها » .

فلم تكد السيدة تستمع إلى القصة حتى اشمأزت مثل اشمئزازه وأبدت دهشتها من وجود مثل هـذه المرأة بين الأحياء .

ولم يجبها تشونج بشىء ولكنه أخذ يردد هذه السطور :

حين نكون بين الأحياء

يصف ودهم بالعمر الأصدقاء

وحين تدركنا المنون

فانهم ثرانا يجففونه
أنت تصور الأنعام
فتصور منها الجلد لا العظام
وأنت لا تطلع على قلوب الرجال
بل ترى وجوههم وظاهر الاحوال

غضبت زوجته من هذه المقطوعة وقالت : « إنك لتوغل فى الخطأ حين تردد مثل هـذه الأقوال فإن الناس يختلف بعضهم من بعض ولـكل رأيه فى الحق والضلال ؛ ولـكنك تتحدث كما لو كان النساء جميعاً على غرار واحد وهذا من الخطأ » .

فأجابها تشونج : « لست أبغى إغضابك ، ولـكننى أرى أن الموت لو انتزعنى منك لارتدت الذاكرة ضعيفة فى جسم شاب جميل مثل جسمك » .

— إن المثل القديم يقول : « ان الرجل الصادق لا يكون خادماً لحاكمين » فـكذلك المرأة الصالحة لن تـكون لبعل جديد ، ولو وقع لى هذا الأمر المحزن أمر موتك

اظللت مخلصة لك إلى الأبد . إن من العيب أن تتخذ امرأة طالحة أو امرأتين طالحتين أساساً للحكم على جميع النساء بأنهن طالحات ولو كان حبهن ثابتاً لا يتغير ، وكان احترامهن لأسمى الصفات فوق كل سؤال . إنك تنأى عن الحق حين تردد أقوالا مخربة تتناول سلوكى وحبي مثل هـذه الأقوال .

ثم انتزعت المروحة منه ومزقتها إرباً ورمت بهـا إلى الأرض .

فاعتذر تشونج عما بدر منه ، وقال : « إننى ليملأنى السرور لأنك تختلفين عن الأخريات » .

وبهذا انتهى بينهما الجدال .

***

وبعد يومين أو ثلاثة مرض تشونج وساءت حالته سريعاً فسهرت زوجته عليه لم تغادره ليلا ولا نهاراً ، وقد علا الحزن والإجهاد وجهها .

وأخيراً قال لهـا تشونج : « إنى لأخشى أن يكون

الموت منى غير بعيد ، وأن أرحل عنك بعد قليل ، ومن أسف أن مروحتك قد تحطمت ، فلعلها كانت تؤدى خدمة لك » .

فقالت له : « إنى سأكون وفية لذكراك . لقد نلتُ تعليما حسناً أميز به الهدى من الضلال ولن أقترن من سواك ، فإن تبق فى ضميرك بعض الوساوس دعنى أبخع أمام عينيك نفسى لترى مقدار قوة حبى » .

أشار إليها إشارة الصمت ، وقال : « كلا ، لا تفعلى ؛ إن فى كلماتك الغناء ، ولقد استيقنت الآن أنك أنثى طيبة » .

وانقطع تنفسه وانتزعه الموت .

حملت السيدة جثمانه ، وهى تصرخ فى مرارة ، إلى خير غرف المنزل ، وارتدت عليه السواد ، ولازمها الأسى واغرورقت عيناها بالدمع عندذكراه ولم يسُغ فى فمها طعام ولا شراب .

وكان قلائل من أصدقاء « تشونج » يحضرون بين الحين والحين ليقدموا احترامهم الأخير للرجل العالم ، فلم تجد السيدة فى حضورهم رَوْحاً .

وفى اليوم السابع أقبـل شاب حسن الطلعة حسن اللباس يتبعه خادمه ، وقال إنه أمير « تشو » وإنه جاء يلتمس عِلم « تشوانج » فلم يكن يدرى نبـأ وفاته وإنه سيُحيي من أجله « أشهر الحداد الثلاثة » حزناً على فقد أستاذه ، وهو ما يجب على تلميذ نحو معلمه .

وبغير أن يزيد شيئاً خلع ثيابه الجميلة وارتدى ثياباً خشنة وأدّى مراسم الاحترام للبدن المسجّى ، ثم أبدى رغبته فى مقابلة السيدة ليقدم إليها من الاحترام ما قدم لمعلمه ، فأقبلتْ لتراه ودهشت دهشة عظيمة لنظراته الجميلة وأعطته تلبية لطلبه نسخة من مؤلف تشوانج الحـكيم المسمى « نان هواتشنج » ونسخة من مؤلف « لاو الحـكيم » المسمى « تاوتى تشنج » .

وقال إنه كان يبحث عن غرفة قريبة من المنزل حتى يستطيع أن يُحْـيِي « أيام الحداد » على أستاذه ويحيط فى الوقت عينه إحاطة كاملة بمؤلفاته .

فردت السيدة بأن الأمر لا يستحق عناء فإنه يستطيع

أن يقيم فى الغرفة المجاورة لغرفة الميت .

وألفت السيدة أن تقدم شعائر الاحترام لزوجها الراحل كل يوم فإذا فرغت منها أخذت تتحدث إلى الأمير حتى وجدت السرور فى صحبته وأخذ هذا السرور فى التزايد وانقلب اهتمامها به — بعد يومين أو ثلاثة — إلى حب قوى له وإن لم يَبدُ أنه من ناحيته قد أحبها مثل حبها العميق .

وذات يوم تحدثت السيدة صدفةً مع خادم الأمير فعرفت أن الأمير غير متزوج وقال الخادم فيما قال : « لقد سمعته يقول إنه لن يتزوج من امرأة لا يكون لها من الجمال — إذا أذنت لى أن أقول — مثل جمالك يا سيدتى »

— ألك ، والأمر ما ذكرت ، أن تعيننى بكل ما تستطيع لأقترن منه ؟

— إن الأمير نفسه قد فكر فى المسألة وكان خليقاً أن يرحب بما تفكرين فيه لولا علاقة التلميذ باستاذه .

— إن هذه العلاقة لا تؤثر فى الموضوع . لأن

تشوابج لم يكن فى الحقيقة أستاذاً للأمير . وعلى كلٍّ فإن هـذه الجبال لا يعيش فيها إلا نفر قليل ولا خوف من أحاديث الناس . ولئن توفق إلى تنفيذ هذا الأمر أكافئك مكافأة حسنة .

وعدها الشيخ أن يبذل من أجلها ما يستطيع ولـكن يومين أو ثلاثة أيام مضت بغير نبأ فاستولى عليها القلق حتى رأت الخادم يوماً فانتهزت الفرصة وسألته عن مهمته فأجابها بقوله : « لقد نقلت للأمير فـكرتك ومع ارتياحه لها فإنه أبدى ثلاثة أمور قال إنها ما زالت تحتاج إلى التفكير : أولها هذه الجثة فى الغرفة الأمامية كأنها نذير سوء لـكل من يفكر فى الزواج ؛ وثانيها أن المرحوم تشوابج تزو كان رجلا عالى الصفات عظيم الحظ من العلم ، فإن الأمير ليخشى ألا تجديه كفؤاً لك حين توازنين بينهما ؛ وثالث الأمور أن الأمير إنما قدم ليرى أستاذه دون أية فـكرة عن الزواج فمن الصعب عليه أن يواجه مقتضياته . »

فـكرت السيدة قليلا ثم قالت : « إن الأجوبة سهلة

جداً ؛ فعن الأمر الأول : يوجد منزل صغير قديم خلف هذا المنزل يمكن أن يوضع فيه الجثمان . وعن الأمر الثانى : أن تشوانج كان سيء الرأى فى قدرته على معالجة شئون الأقليم وهذا هو السر فى لياذه بالجبال . ومن جهة أخرى فإنه قبيل وفاته رأى امرأة تجفف الثرى فوق جثمان بعلها بمروحة فعاد إلى المنزل وقال أقوالا قاسية عن حبى له . ومن هذين المثالين يظهر بوضوح أنه لم يكن رجلا قديراً وأنه لم يحز صفات عالية . . أما أميرك فإنه شاب وشغول وذو مستقبل عظيم ؛ ثم إنه ينمى إلى بيت مجد كما أنمى إلى أب عظيم ذى مركز رفيع فى أقليم « تشى » فمن الخير أن يكون بيننا زواج . أما الأمر الثالث فإنه أسهل الثلاثة : ذلك أن الزواج سيكون فى منزلى فعلىَّ أنا لا عليه أن أدبر لكل شيء . قل له إن اليوم يوم جميل فليكن الحادث السعيد فى هذه الليلة بالذات . »

حمل الشيخ هذه الأجوبة إلى الأمير ، ثم عاد بموافقته فعظُم سرور السيدة وارتدت خير ثيابها ، وأخرج الخادم

الجثة من المنزل وأضىء المنزل بكل ما تيسر من الأنوار .

وفى تلك الليلة ذهبت مع الأمير إلى وسط الحجرة الأمامية ، وكانت مملوءة بالزهور ومضاءة بالشموع ، فقدما مراسم الاحترام لآلهة السماء وآلهة الأرض .

وفى وسط سعادتهما انتاب الأمير مرض شـديد ، وبدت عليه إمارات الموت المقترب فذهلت السيدة ولم تدر ماذا تصنع .

فلما أقبل الخادم قال إن الأمير ينتابه أحياناً داء غريب لا يشفيه منه إلا أن يتناول مخ رجل ممزوجاً بخمر دافىء ، وان الوسـيلة الوحيدة للحصول على مخ رجل هى العثور على رجل أُعدم لاقترافه جرماً كبيراً . ولـكن هنا فى الجبال ماذا يمكن أن يصنع ؟

فـكّـرت السيدة ثم قالت : ألا يصلح مخ أى رجل للعلاج ؟

— بلى إذا لم يكن قد مات قبل سبعة أسابيع .

قالت السيدة من قلبها :

— إذن فلماذا لا تنتفع بمخ شوانج ؟ إنه مات منذ أربعة أسابيع فقط .

— لقد خفتُ ألا تسمحى لنا بذلك .

— إن من الصواب العظيم أن نستعين بالرجل الميت الذى لا يغنينا كبير غناء على شفاء رجل حى قد أصبحت زوجاً له .

وأمرت الخادم أن يعنى بالأمير ثم حملت بنفسها ضوءً ومكسراً للأخشاب ، وذهبت إلى المنزل الصغير حيث أودع جثمان شوانج ، ووضعت النور على طرف الصندوق الضيق ثم عمدت إلى طرفه الآخر ، فانهالت عليه بضربات شديدة بالمكسر فتحطم غطاء الصندوق .

وأرادت أن تجلس بجوار الصندوق لتستريح وهلة ، فرأت شوانج يستيقظ فجأة فى الصندوق ويتنفس تنفساً عميقاً فأسقط الرعب المكسر من يدها ، وأخذ قلبها ينبض بشدة . وسمعت صوت شوانج يصيح مستعيناً على الخروج من الصندوق فمدت إليه ساعدها ، فلما خرج تبعته والنور

فى يدها نحو الغرفة حيث كان الأمير وتابعه ، ولكنها دهشت اذ لم تجدهما فى حين أن كل شيء فى الغرفة ظل على حاله ، فزال كل خوف من نفسها وأسرعت إلى نسج حكاية تصور الأمور فى الصورة التى يحبها شوانج فقالت :

« لقد ظللت أفكر فيك منذ موتك حتى خيل إلىّ الليلة أنى أسمع صوتاً صاعداً من صندوقك ، فنشأ فجأة فى نفسى أمل أن تعود إلى الدنيا كما كان الموتى يعودون فى سالف الأزمان فبذلت وسعى لفتح الصندوق وما أسعدنى حين أجدك معى ثانياً » .

— لقد كان لطفاً عظيما منك أن تصنعى ما صنعت . ولكنى لا أفهم جيداً لماذا ارتديت كل هذه الثياب الجميلة .

— لأن الناس الفوا فى العصور السالفة أن يتهيأوا لاستقبال الموتى إذا أنشروا بثياب جديدة تواثم مثل هذه الحادثة السعيدة .

— ولكن لماذا وضعتنى فى المنزل القديم فى ظهر هذا البيت ؟ أهذا أيضاً علامة سعيدة ؟

وظل هذا السؤال بغير جواب ؛ ورأى شوانج الطعام والشراب على المائدة فأكل أكلة طيبة ، ولم تكد السيدة

تأخذ فى تهدئة مخاوفها حتى قال شوانج : « انظرى هــا هوذا الأمير وخادمه ! » .

وتلفتت فرأتهما يدخلان فى بطء فلئ قلبها رعبا ولم تدر ماذا تصنع ، ولم تعــد قادرة على النظر إلى شوانج ؛ ومضت دقيقة فاختفى الأمير وتابعه ولم يبق غــير شوانج فأمرضها الخوف والخجل وماتت قبل الصبح .

لم ييأسْ شوانج على فقدها ، بل تناول إناء وأخذ ينقر عليه نقراً منغما ويغنى مع النغم هذه المقطوعة :

إن الحب جميل ولكنه لئيم

يحول كالناس الى الجديد عن القديم

وسرعان ما تأتى المراوح والسكاكين

قبل أن تبرد عظامك المذوبه

هذه مسالك الناس فى الحياة

سواء فقراؤهم والثراة

* * *

ولما فرغ من نشيده أشعل النار فى منزله وانطلق عبر الجبال فلم يره بعدها إنسىٌّ ، وقيل إنه قد ذهب إلى أرض الخالدين

— ٢ —

سراب التلقين

مُـنِيَ أحدالفتيان ببلاهة شديدة أقلقت والديه ، فرأيا أن يزوّداه بالمال ويدفعاه إلى الارتحال فى بلاد غير البلاد عسى أن تردّه الرحلة أعقل مما ذهب .

خـرج الفتى وعبر فى بعض طريقه بشجرة فرعاء انبثّـت فى أثنائها جمـاعة من صغار الطير تزقزق فتحدث صوتاً شديداً ، وما هى إلا أن يفجأها طائر ضخم معروف القسوة شديد القُـوَى حتى ترتد جميعاً إلى الهدوء ؛ وكان رجل من العلماء يراقبها جالساً تحت الشجرة ويقول :

« طائر واحد يهبط من الجو

فتكف الطير جميعا عن الشدو »

سمع الفتى مقالة العالم فقال له : هلاّ تفضلت يا سيدى فأفهمتنى هذا الذى قلته ؟

ولكن العالم لم يلق بالاً لسؤاله وأجابه : قد قلتُ

ما قلتُ وليس هذا من شأنك .

وعاد الفتى يقول : لو جعلتنى قادراً على أن أقول ماقلته لقدمت إليك بعض المال .

وسرعان ما اتفقا فقبض العالم نقوده وجعله يردد :

طائرٌ واحد يهبط من الجو

فتكف الطير كلها عن الشدو

ولما استوثق الفتى من حفظه هذه الألفاظ عن ظهر قلب ، انصرف لا يلوى على شيء حتى ألمّ بمورد يلتمس عنده الماء .

وكان الوقت شتاءً ، فانهمر الماء من عيون الفتحة ، واستحال ثلوجا تحف بها .

وحدث أن أقبل شيخ بحماره ليسقيه ، فلما اقترب الحمار من الماء داس الثلج فذعر الشيخ وصاح : «شدّوا إليكم الحمار ، شدّوا إليكم الحمار» .

واهتم الفتى فسأل الشيخ عما قال ، فأسرع الشيخ يقول : «شدّوا إليكم الحمار ! هذا هو ما قلت» .

فعرض عليه الفتى أن يعطيه مالاً إنْ هو جعله قادراً أن يقول مثل قوله . فأخذ الشيخ يلقنه هذه الجملة حتى قَدَر عليها فقدم للشيخ بعض النقود وقفل راجعاً إلى أهله.

وأفعم السرور أباه حين رآه وأقبل الجيران جميعاً يقرئونه السلام ، وتحدث بعضهم إلى بعض فكان لغط شديد أعقبه هدوء حين دخلت أمه ووقف الجميع لتحيتها ؛ ورأى الفتى أن فرصته قد سنحت فقال :

طائر واحد يهبط من الجو

فتكف الطير جميعا عن الشدو

هنا لم يتمالك أبوه نفسه من الفرح فقد نطق الفتى للمرة الأولى بالكلام الحسن الملائم فى الوقت الملائم والمكان الملائم . واستخف الطرب هذا الوالد فارتفع صوته بضحكة مدوية ونهض واقفاً فتعثر وسقط إلى الأرض ، فأسرع الشاب يقول : « شدوا إليكم الحمار ! شدوا إليكم الحمار ! »

— ٣ —

خوخة من حديقة الخالد (١)

« قص على هذه القصة
فرد من أبناء ريفى »

قصدت إلى المدينة ذات يوم فى حداثة سنى ، وكان اليوم فاتحة الربيع يوم ينشد الناس جميعاً مسرات نفوسهم . وقد ألف التجار فى مثل هـذا اليوم من كل عام أن يأتوا من كل فج من فجاج الأقليم ويسيروا قافلة طويلة يحملون الأعلام وتصحبهم الموسيقى حتى يبلغوا « مقر الاجتماع العام » فقد كان ذلك أسلوبهم فى إعلان مولد الربيع .

وذهبت مع صديق لنشهد الملاهى ، ورأيت جمعاً ضخماً من الناس تميز منهم أربعة رجال يبدو عليهم خطر الشأن ،

---

(١) العنوان الحرفى هو : « خوخة من حديقة الأم الملكية » ؛ وجاء فى الحاشية الانجليزية تفسيراً لهذا التعبير : « جاء فى حكاية عريقة القدم ان كائناً مخلداً يسمى « الأم الملكية » كان يعيش فوق قمة جبل شاهق يتصل بالسماء من الناحية الشرقية ، وكانت لهذا الكائن حديقة ذات أشجار من ذاق ثمارها كتب له الخلود » .

ويرتدون معاطف طويلة حمراء ويجلسون متقابلين إلى يمين الباب ويساره . ولحداثة سنى لم أدر ما مرا كزهم على التحقيق واستأثرت باهتمامى كله تلك الضجة الصادرة عن تلك الكتلة البشرية الضخمة وعن آلات الموسيقى .

ووسط هذا كله دخل إلى بهو الاجتماع رجل يحمل صندوقاً على ظهره وغلام ذو شعر طويل وبدا لى كأنه يقول شيئاً للرجال المجتمعين ، شيئاً لم استطع تمييزه خلال الضجيج ولكنى رأيت الرجال يبسمون ثم رأيت خادماً يسرع فيأمر الرجل فى صوت مرتفع أن يقوم ببعض الحيل . وتأهب الرجل للعمل ثم سأل : أى الألاعيب تريدون أن أريكم ؟ وبعد أن تباحث القوم قليلا سأله الخادم ما هى أحسن حيلة ؟ فأجابه الرجل بأن فى مكنته أن يأتى بما يعتبر من الخوارق ، فلما حمل الخادم إلى القوم جوابه صدر إليه الأمر أن يأتيهم بثمرات من الخوخ فوعد أن يجيئهم بما يطلبون .

وقال الرجل وهو ينضو معطفه الخارجى ويضعه فوق صندوقه : « إنه لعمل شاق ! فإن ثلج الشتاء لم يذب بعد ،

فأنَّى لى بالخوخ ؟ ولو قلت « لا » لغضب العظماء منى فماذا عساى أن أصنع ؟ »

فقال له ولده ذو الشعر الطويل انه قد تعهد بالأمر فليس منه مفر .

وبعد وهلة قصيرة صاح الرجل : لقد وجدتها ؛ إن من المحتمل أن نجد الخوخ فى حديقة الخلد حيث تدوم خضرة الأشجار ، ولكن علينا أولا أن نتمكن من الوصول إليها .

— ولكن كيف نستطيع الرقىّ إليها يا أبى ؟

— سترى

وأسرع الأب إلى صندوقه فأخرج منه حبلا يناهز طوله مائة قدم وربطه إلى رأسه ثم قذف بأحد طرفيه إلى أعلا وأخذ الحبل ينطلق فى السماء صعداً حتى اختفى طرفه بين السحب ولم يبق فى قبضة الرجل إلا مسكة قصيرة

نادى الرجل ولده ووضع طرف الحبل بين يديه وقال له : « إننى شيخ هرم وإن لى لوزناً ثقيلا فلتصعد أنت بدلا منى » .

— ولكنك لا تدرى ماذا تصنع ! إنك لتريدنى أن أصعد كل هذه المسافة وليس لى مساك إلا هـذه القطعة الرفيعة الواهنة من الحبل ، فإن أفلتت من يدى كان فى ذلك هلاكى » .

— هيّا يا عزيزى . لقد التزمت هذا الأمر وليس منه مفر : ولو أحضرت المرغوب لظفرنا بجائزة كبيرة من الفضة سأحفظها من أجلك لتستطيع أن تقترن يوماً من فتاة جميلة » .

وتناول الغلام الحبل وصعد يداً فوق يد كحشرة تنسج خيطها الحريرى وما هى إلا لحظة قصيرة حتى اختفى بين السحب .

وبعـد دقيقتين أو ثلاث سقطت خوخة فى حجم الحوض فالتقطها الوالد السعيد وقصد بها إلى بهو الاجتماع فظل القوم ينظرون إليها باهتمام كبير ، وهم من حقيقتها بين الشك واليقين .

وفجأة سقط الحبل فقال الرجل فى صيحة رعب : إن الحبل قد قطع فماذا عسى ولدى أن يصنع ؟

وبعد دقيقة أخرى سقط شىء آخر قرّبوه إلى أبصارهم فرأوه رأس الغلام .

فصرخ الرجل فى مرارة : آه يا ولداه ! إن البستانى قد ضبط ولدى وإنه قد مات » .

وبعين الطريقة سقط ذراعا الغــلام وساقاه وبدنه . فصارها الأب إليه ووضعها فى الصندوق قائلا : لقد كان ولدى الوحيد الذى صحبنى فى كل مكان وها هو ذا قد لقى نهايته فلأذهب ولأهيء له فى الأرض مستراحاً » .

ثم قصد إلى الرجال فى البهو وقال : إن خوختكم أيها السادة الطيبون قد كلفتنى حياة ولدى فتعطفوا علىّ ببعض المــال استعن به على تمهيد مقره الأخير وإن صنيعكم الجميل سيجعلنى سعيداً فى أيامى الباقية » .

دهش العظماء الذين رأوا هذا الحادث وتأثروا وسارعوا إلى إعطائه بعض المال فلما قبضه عم شطر صندوقه وربّت عليه قائلا : «أيها البربرى ! لماذا لا تخرج لتقدم احتراماتك

إلى القوم الطيبين ؟ » . فلم يكد ينتهى من قوله حتى قفز من داخل الصندوق غلام ذو شعر طويل وأدى علامات الاحترام للمجتمعين فى البهو . ولم يكن هذا الغلام إلا ابن الرجل بالذات .

ومنذ ذاك لم انس هذه اللعبة قط .

« تشاو » الطيب القلب

كان « تشاو » رجلا يحب الآخرين أكثر مما يحب نفسه ، وكان مستعداً فى كل وقت أن يصنع جميلا لأى إنسان فأكبر مسراته أن يساعد المحتاجين ، وسجيته أن يعطى دون رجاء فى المكافأة . ولكن شغفه بالإحسان لم يلبث أن دمَّره فبات أفقر من العافين الذين كانوا بالأمس يستَنْشدونه . فلما استنزف ثروته حتى الثمالة اعتزم أن يرتحل إلى « بوذا » يستلهمه الصواب . ولكنه لم يخرج لشأنه إلا بعد أن تحدث عنه إلى كل من قابله فحمَّله كلُّ صديق وحمَّله كل ساكن فى الأنحاء القريبة مسائل يعرضها على الحكيم الأعظم .

قال السيد لى وزوجته لتشاو : « إن لنا لفتاة فى العشرين وإن جمالها لساحر ولكن الفتاة المسكينة لا تستطيع الكلام فهل يقيض لها أن تنجو من هذا المصاب ؟

اعرض الأمر على بوذا لعله قادر أن يصنع من أجلها شيئاً نبق مدينين لك إلى آخر الحياة » .

وقالت له السيدة « وانج » : « إن لى طائراً وليس لطائرى غناء ، وإن لى كلباً وليس لكلبى نباح ، فلم كان ذلك ؟ » .

حفظ « تشاو » جميع الأسئلة عن ظهر قلب ثم ابتدأ رحلته فلما بلغ شاطىء البحر رأى حيواناً بحرياً كبيراً[1] يترقبه وخاطبه الحيوان قائلا : « هلا تفضلت يا سيدى فسألت بوذا أمن المحتمل أن أنال الخلود ؟ لقد ظللت أنتظر هنا ألف عام » فطلب تشاو إلى الحيوان أن يطمئن فسينبئه بما يقول بوذا .

وانطلق الرجل الطيب القلب حتى لقى بوذا فى مكان هادئ على قمة جبل فنفض إليه جميع الأسئلة التى حملها إياه أصدقاؤه ، وتلقى أجوبتها على هذا النحو :

---

(١) سمى الحيوان فى الأصل الانجليزى Oyster ووصف فى الحاشية بأنه حيوان بحرى يعلوه غطاء خشن على الجانبين ، وقد ينطوى هذا الغطاء على جواهر غالية .

«إن الفتاة «لى» لا تنطق لأنها ترقب صاحب فؤادها، وستقوى على النطق يوم يجيئها الرجل الملائم فى الوقت الملائم.

وأما السيدة «وانج» فإن طائرها لا يشجو كما أن كلبها لا ينبح، لأن فى أرض حديقتها كنزاً مخبوءاً لا يعلم علمه أحد.

وأما الحيوان البحرى فإن فى ثنايا غطائه جوهرة قد فتن بها وأحبها حباً جماً فأخطأ فى حق ذاته، وحرم نفسه أن يكون كائناً من المخلدين».

أحب «تشاو» أن يسرع بالأجوبة إلى أصدقائه حتى نسى فى غمرة هذا الحرص أموره الخاصة فلم يطرحها على بوذا وقفل عائداً من عين الطريق فرأى الحيوان البحرى قائماً على شاطئ البحر يتشوف إلى معرفة مصيره، فلم يكد يستمع إلى جواب بوذا حتى آمن أنه الحق فلم يضع وقتاً، وقال لتشاو فى غير تردد: «إليك فخذ هذه الجوهرة التى حالت بينى وبين الوصول إلى ساحة الآلهة».

ولم يكد تشاو يتناول الجوهرة حتى انتفض الحيوان

فصار أجمل كائن رآه تشاو فى حياته ثم اختفى عن الأنظار وسط السحب .

أما أسرة وانج فقـد ملأها السرور بجواب بوذا ، وأعملت الفؤوس فى ثرى الحديقة حتى عثرت على مائة ألف قطعة من الفضة دفعت بالجانب الأكبر منها إلى « تشاو » مكافأة له ، فاستعاد فجأة حالته الطيبة .

ويمم بعد ذلك شطر منزل «لى» ليقدم للأسرة حساباً عن رحلته . وفيما كانوا يتحدثون معاً ، دخلت الفتاة إلى الحجرة فلم تـكد تنظر تشاو حتى قالت : « انظروا ! لقد عاد « تشاو » أخيراً ! » .

وقال السيدان « لى » : لقد وضحت إرادة بوذا أن تـكون فتاتنا زوجاً لك » .

وكانت الرغبة الوحيدة للفتاة أن تقترن من « تشاو » ولم يتأخر الحادث السـعيد طويلا وعاشا سعيدين .

وهكذا نال «تشاو» الطيب القلب بمساعدته الآخرين كل ما يلزم لإسعاد رجل : المـال والحب .

زرع الكمثرى

حمل بائع فاكهة كمثراه ذات يوم إلى السوق ، وكانت الكمثرى حلوة وكان ثمنها غالياً .

وأقبل على السوق يلتمس حبة من الكمثرى رجل رثُّ الثياب من شيعة «الطوى»[1] فانتهره البائع واستنآه فأصرَّ وما نأى فامتلأ صدر البائع عليه غضباً .

وقال الطاوى للبائع : فيمَ كل هذا الغضب ، وأنت قد حزت كل هذا العدد الكبير من الكمثرى فلن تستشعر خسارة إن أنت أعطيتني واحدة ؟

وبذل المجتمعون قصاراهم حتى استطاعوا أن يقنعوا البائع بمنح الرجل حبة من أردأ ما معه عسى أن يمضى لطيته ؛ ولكنه رفض أن ينصرف ، ورأى صاحب السلطة أن الجدل يحتادُّ أكثر فأكثر ننقد البائع ثمن

(١) فى الاصل of The Taoist religion

حبة ودفع بها إلى الطاوى فتناولها بحركة احترام وخاطب القوم المحتشدين حوله قائلا :

« ان من يمضون حياتهم بمنأى عن الصديق والقريب ليظنون أن من المحال أن يهب أحد شيئاً لأحد ، ولكن هأنذا امتلك عدداً من أجود أصناف الكمثرى وانى لتغمرنى الغبطة حين ازل عنها كلها إليكم » .

فسأله واحد من الجمع : « إذا كنت تمتلك حبات من الكمثرى فلماذا لم تمنح نفسك واحدة منها ؟ »

وكان جواب الطاوى : « ذلك لأنى سأستنبت هذه الحبات من إحدى البذور » .

ولم يكد ينتهى من قوله حتى دفع بالكمثراة إلى فه فالتهمها فى ثانية ، ثم تناول بذرة فجعلها فى يده وحفر الأرض حفرة بفأس كانت على ظهره ، ووضع البذرة فى الحفرة ثم سوّى الأرض فوقها كما كانت ، والتمس من الجمع ماء ساخناً يصبه على الثرى ، فأحضر أحدهم ماء يغلى من مخزن قريب ، ودفع به إليه يريد الداعبة والتسلية فصبّ

الطاوى الماء فوق التربة واتجهت جميع العيون صوبه تملأها الدهشة وهى ترعى نبتة صغيرة تخرج شطأها وتتعالى فوق الأرض دقيقة بعد دقيقة ، ثم تكون بعد برهة قليلة شجرة كبيرة تتفرع منها فروع تكسوها أوراق فزهرات فتتدلى منها حبات من الكمثرى ضخمة طيبة الشذى يقطفها الرجل ويدفع بها كلها إلى المحيطين به ، ثم يضرب الشجرة بفأسه فتقع إلى الأرض فيحملها ، وينصرف فى هدوء .

وكان البائع من أول الأمر يراقب مع المراقبين ويمد عنقه ليرى ما يجرى ، فأذهل عن شئونه ، فلما أفاق بعد انصراف الطاوى رأى أن جميع كمثراه قد ذهبت وعرف أن ما منحه الرجل للمجتمعين لم يكن غير بضاعته المفقودة ، ودقق النظر فى المخلاة التى كانت تحتوى الكمثرى ، فرأى أحد ذراعيها قد قطع منذ قريب ، فانطلق فى أثر الطاوى يفعمه الغضب ، وعثر فى بعض طريقه على الذراع المقصوص ملقى إلى جوار جدار ، ولم يكن هذا الذراع إلا شجرة الكمثرى التى ضربها الطاوى بفأسه .

أما الطاوى نفسه فلم يقع له أحد على أثر ، ولكن أهل السوق جميعاً قد سرتهم الحيلة سروراً عظيماً .

– ٦ –

ميتتـان عجيبتـان

فى بلدة ريفية صغيرة من أعمال شانتونغ توفى رجل فى الخمسين من عمره .

ولـكن أسرته لم تـكد تأخذ فى ارتداء السواد حتى قرعت آذانها صرخاته فتـكأكأ الجميع حول جثته ورأوا الميت يرتدإلىالحياة فامتلأوا سعادة وانهالوا عليه بالأسئلة ، ولـكنه لم يلق إليهم بالاً ، بل اتجه نحو المرأة التى كانت زوجه وقال لها : « حين غادرتكم لم أجدرغبة فى الرجوع إلى الحياة ، ولـكنى لم أكد أقطع ميلين حتى فكرت فى أنك ستصبحين من بعدى محتاجة إلى غيرك فى كل شىء وانك لن تحسى مسرة فى الحياة ، ولهذا عدت ثانية من أجلك » .

لم يحمل أحد كلامه على محمل الجد لأنه إنما مات منذ

لحظات قصار وقالت له المرأة : « ولكن أنى لى ، وأنا ما زلت حية كما أنا ، أن أموت وشيكا ؟ »

فأمرها الرجل بحركة من رأسه أن تسرع فتنجز كل شئونها بأسرع ما تستطيع فاستضحكت ولم تتحرك ، ولكنه عاد يرجوها أن تصدع بما أمر فغابت عن الغرفة لحظة ، ثم عادت فأنبأته أنها قد أقرت كل شيء فى نصابه ، فطلب إليها أن تذهب فترتدى ثيابها ، فلم تخف إلى إجابة طلبه ولكنه أصر عليه ، فذهبت وهى الحريصة على رضائه فارتدت ثيابها وعادت إلى مجلسه ، وبناتهما كلهن وزوجات أبنائهما طراً يتضاحكن خلال هذا الحوار .

وضع الرجل رأسه فوق مخدة ، ثم أشار إلى زوجته أن تصنع صنعه فقالت إنه ليخجلها أن تضطجع على مشهد من البنين والبنات ، فضرب الرجل فراشه بقبضه يده قائلا : أى خجل فى أن نمضي إلى الموت معاً ؟

ورأى البنون والبنات ان أباهم قد تملكه الغضب فرجوها ان تلبي ما طلب ، فأخذت مكانها إلى جواره على الفراش .

وخلال ذلك كان الأطفال يغالبون الضحك فيغلبهم ، ولـكنهم لا حظوا بعد دقائق أن المرأة لم تعـد تتبسم وأن عينيها قد انطبقتا ، وان برهة طويلة قد نقضّـت وهى لا تأتى حسًّـا ولا حَركة كأنها فى سنة من النوم .

فلما اقتربوا منها أدهشهم وصدمهم أن يروا جسمها قد أضحى بارداً برودة الثليج ، وأن تنفسها قد انقطع . وكذلك كان الرجل .

- ٧ -

فيّاشان

قيل لرجل من أهل الغرب إن فى الشرق غرائب كثيرة ، فقرر أن يسعى إلى مشاهدتها

وفى طريقه لقى رجلا من أهل الشرق قد ارتحل من أقصى الأرض ليشهد ما فى الغرب من عجائب فخطر لهما أن يتبادلا حكاية العجائب عوضا عن تجشم العناء لرؤيتها .

وهكذا بدأ المشرقى فقال : « فى إحدى كنائس بلادى طبلة طول دائرتها أكثر من عشرة أميال » .

فجاوبه الغربى بقوله : « وفى بلادى بقرة إذا كان رأسها على شاطئ البحر الشرقى كان ذيلها على شاطئه الغربى أما قدماها فيزنان عشرة ألوف من الأطنان » .

قال الشرقى إن هذا محال فأجابه صاحبه : لئن لم توجد مثل هذه البقرة ، فأنّى لكم أن تجدوا جلداً لطبلتكم ؟

قال الشرقى : « طيب » ، ثم مضى فى حديثه : « وفى

بلادى جبل يردد ألف صدىً إذا تحدثت إليه بشىء » .

قال الغربى : ليس هذا بشىء فإن فى بلادى جبلا قريباً إلى منزلى أقول له كل يوم حين استيقظ : « صباح الخير يا جبل » فيرد تحيتى بقوله : « صباح الخير ياسيد «وست» . كيف حالك ؟ » .

عندئذ قال الشرقى للغربى : لقد قيل لى ان لبطاطتكم حجماً كبيرا جداً غير مألوف ، فهل تتفضل بوصفها لى ؟

— بكل سرور ؛ ولكنى سمعت أن قناطركم عالية علوّ الجبال فهل تبدأ بوصفها ؟

— أى وه ، بل هى أعلى من الجبال بكثير ، وإليك مثلا بسيطا تتبين منه ارتفاعها : فى مثل هذا اليوم من العام الماضى ، سقط رجل من إحدى قناطرنا ولمّا يبلغْ جسمه الماء فهل تعتبر هذه الجبال مرتفعة ؟

— نعم إنها مرتفعة . أما بطاطة بلادى فإن من العبث أن تذهب لرؤيتها لأنها تنمو نمواً سريعاً بحيث تمتد إلى بلادك وتراها معك فى الشرق بعد عام .

— ٨ —

الخضر الصغير

كان الخضر الصغير حطاباً حسن الطلعة فى العشرين من عمره ذا قلب مفعم بالرحمة ، وكان لأمه خير الأبناء .

وقد درج على أن يبكر صباح كل يوم إلى الجبال القريبة يحتطب منها ثم يحمل حطبه إلى سوق البلدة ، ويشترى بثمنه لأمه طيب الغذاء وجيد الكساء .

وذات يوم كان الخضر يسعى فى الغابة حاملا منجله فى يده ، فهبت عليه فجأة ريح صرصر عاتية اقتلعته من طريقه . . .

وناجز الريح كما يناجز كائناً حيا ، فلوح بالمنجل فى يده ، وأدهشه أن يرى أثر دماء فى الطريق كأنه أصاب إنساناً فاقتفى أثر هذه الدماء ، فانتهت به إلى هوة سحيقة فى الأرض لم يستطع لعظم عمقها أن يبصر بقاعها ، فألقى

إليها حجراً فلم يستمع لوقعه إلا صوتاً خافتاً فناجى نفسه قائلا : « لعل مارداً يقطن فى هذا المكان » .

ثم قفل راجعاً إلى الطريق فإلى البلدة وهو مستغرق فى تفكير عميق ، فشهد فى الميدان العام ضجه كبيرة قوامها حديثٌ وصياحٌ حول شخص يلصق فوق الجدار إعلاناً ينطوى على هذه الأنباء المثيرة :

« فى ساعة متأخرة من هذا اليوم كانت الأميرة تسير فى حديقة الملك ففاجأتها ريح شديدة حملتها بعيداً ، فامتلأ الملك والملكة حزناً . وأنا بأمر الحكومة نعلن فى أفراد الأمة جميعاً هذا الحادث المحزن لعلّ أحدهم أن يُنهى إلينا خبراً يعين على استعادة الأميرة . وكل ذى خبرة فى شئون الرياح مرجوٌ أن يزور بيت الملك والملكة » .

ذهب الخضر فقابل الملك ، وقدم إليه تقريراً عما حدث له فى الغابة ، فكافأه الملك على إخباره بمائة رطل من الذهب فحملها إلى أمه مسروراً .

وقالت الأم مدهوشة لفتاها :

— أنّى لك هذا ؟

فقصّ عليها الأمر من أوله لآخره ، فتأثرت تأثراً عميقاً لحادث الأميرة ودفعها أساها على الملك والملكة ان تقول لولدها :

— أى ولدى العزيز ، لقد صنعتَ خيراً فى سبيل الأميرة . ولكن الا يُقَدَّر للملك ، الذى طالما بذل الكثير من أجلنا ، ان يسترجع فتاته ؟

أجاب الفتى : « لست متيقناً » .

فقالت له امه « اذهب وافعل كل ماتستطيع لاستعادة الأميرة تسعدْنى بذلك كل إسعاد » .

روّى الخضر فى الأمر بعض التروية ولم يكن ليسعد بشىء أكثر من سعادته بإرجاع الأميرة لأمها وأبيها ، ولكن المهمة بدت محفوفة بالمخاطر ، ثم كيف تعيش أمه من غيره ؟

بيْد انّ أمه طمأنته قائلة : « لا توْجل يا ولدى فإن بوذا سيحفظنا » .

وقبل أن يدرك الخضر القصر كان الملك قد أذاع فى الناس يطلب فتى غير هياب مستمدا أن يهبط الهوة الكبرى ويستخلص الأميرة من أى خطر يحيق بها . ولكن أحدا لم يعرض معونته بالرغم من أن الشبان كانوا يتنافسون فى ذلك الحين على يد الأميرة وبالرغم من أن أحدهم واسمه «ووزان» دفعه عجبه بنفسه أن يجهر فى الناس بأنه سينال يدها .

تقدم الخضر إلى الملك يعرض أن يصنع ما لم يعرضه غيره ، فتأثر الملك تأثرا بليغا وقال له «قد تكون ساعيا أيها الشاب لحتفك» فكان جوابه «إننى وكل ما أملك ملك للملك والأمة» ، ورافق الخضر جمع غفير إلى الغابة ووضعوا إلى جوار الهوة آلة لولبية ذات حبل طويل لف حولها ، ووضع فى طرف الحبل سلة كبيرة ذات أجراس ، واتفقوا على أن يهز الخضر طرف الحبل ثلاث هزات حين يبلغ القاع وثلاث هزات حين يريد الصعود ، وجلس الشاب فى السلة مسلحا بمنجله وأدلوا بها فى الحفرة وئيدا وئيدا وسط

صيحات الاستحسان من الجميع ، وكان كل شيء تحت الخضر هادئا مظلما أما فوقه فقد بدت السماء من فتحة الهوة كجوهرة لامعة بيضاء . وحين نالت قدما الخضر ظهر الأرض كانت الجوهرة المستديرة قد أصبحت حمراء من وهج الشمس وهى مائلة للغروب ، فقرع الأجراس ثلاثا ، ثم ألقى نظرة سريعة على ما حوله ، فرأى أنه فى مكان رطب قذر تتصاعد من أرضه رائحة كريهة جدا وحين ألفت عيناه الظلام لمح عن بعد شيئا يشبه طبقا من الفضة تفحصه فوجده طريقا طويلا وسط الأرض مفتوحا أمامه فناجى الشاب نفسه قائلا لعلى فوق كوكب آخر ظانا أن الضوء المستدير هو بعض الشموس ، وسار سريعا غير متهيب ، وكلما أبعد فى السير بدا الضوء أعظم ، وحين انتهى الطريق لم يعد الخضر قادرا أن يرى شيئا ، فقد منعه من الرؤية ضوء لامع كأنه يسطع من جوهرة كبيرة مستديرة كالقمر ومثبتة على قاعدة عالية من الصخر ظهر غير بعيد منها بيت جميل ذو سطح من الذهب الوهاج ، فاقتحم الخضر

ذلك البيت العجيب فجاس خلال حـدائق جميلة وغرفات رحبة حليت تحلية جميلة ، اما الجدران فرصعة بأحجار غالية ولكل شيء فى الحجرة منظر غريب غير طبيعى ، ولم تبد علامة واحدة تعين المكان الذى انبثق منه الضوء او تدل على أن أحدا يسكن البيت وأخذ القلق يغمر الخضر حين سمع فجأة صرخة ألم خافتة ، فسار فى ممشى مسقوف وهو يحبس أنفاسه ويكبت حركاته حتى انتهى إلى غرفة للطهى فماذا رأى أمامه ؟ رأى الأميرة الطيبة شاحبة اللون مريضة تطهو بعض الطعام فى آنية من المعدن الداكن ذات نقوش جميلة ولم تكد تراه حتى اكتسى وجهها بدهشة سعيدة .

قدم الخضر احتراماته إليها ، وأوشك أن يعرفها بنفسه ولكنها أشارت إشارة العلية أن يلزم الصمت ، وأخذته إلى حجرة أخرى أبعد قليلا ثم قالت له ووجهها يبرق بالرجاء « والآن فلتقل كل ما يخطر فى بالك » فذكر الخضر اسمه وما جرى بعد الذى وقع لها فتأثرت تأثراً عميقاً لما سمعته عن عواطف أمها وأبيها وقالت للخضر : « لئن أعدتنى اليهما

لأكوننّ مدينة لك دينا عظيما » فوعدها أن يردها لأبويها مهما يلق من أخطار . فقالت له بنغمة حزينة « إننا فى بيت شيطان غريب شديد القسوة قوى المنف حتى لقد فر من شره جميع خدمه ، وقد استطاعوا الهرب بما ركب فيهم من جناح ، أما أنا فلا جناح لى وإن المارد ليراقبنى ليل نهار ويكلفنى أن أنجز وحدى عمله الشاق كله . ولقد ازدادت طباعه سوء الآن بعد أن جرحته حربة حطاب وإنى لأتحاشاه حين يركبه الغضب وأظل أرتعش فرقا» ، وفى تلك اللحظة سمعت ضجة عالية وصعدت عن الأميرة صيحة ارتياع وتهدر صـوت المارد الغضوب يقول : « أين المرأة الغبية ؟ إنها لا تزال تطهو طعامى تاركة أياى أنتظر هذا الوقت الطويل ! لأحملنها على العمل بطريقتى الخاصة ! » .

وضعت الأميرة ذراعيها حول الحطاب ، وصاحت : أبعده عنى ؛ واندفع المارد إلى الحجرة يهدر غاضبا كأنه ريح عاصف ، وقد التمعت عيناه وبدتا كأنهما قطعة من المعدن وسط وجهه الذى اختلطت خضرته بصفرته ، أما أسنانه

فكانت قاسية كأسنان خنزير برى ، وأما نيوبه فكانت طويلة حادة كأنها قدت من الرصاص ؛ وتقدم رأسا إلى الأميرة محاولا أن يأخذها فاشتبكت أظافره بثوبها الحريرى وتناول الخضر سلاحه واستجمع قوته كلها وأهوى عليه بضربة أنفذت السلاح فى صدره وجعلته يسقط مترنحا .

فقدت الأميرة وعيها وأعانها الخضر على أن تفيق لنفسها ، ولكنها ظلت متأثرة حتى أنها لم تقو أن تقف على قدميها . فقال لها فى احترام عظيم : « دعينى آخذ بذراعك أيتها الأميرة الجميلة » ، ثم انطلقا من البيت وقفلا راجعين إلى الهوة ، وقد بدت المسافة قصيرة هذه المرة فى نظر الخضر ، فإن سروره بقهر المارد وتخليص الأميرة قد جعله خفيف القلب سعيداً .

ولما بلغا الهوة جلست الأميرة فى السلة ، وطلبت إلى الخضر أن يجلس معها فقال لها : « إن الحبل لن يقوى على حملنا كلينا ، وإن من حق الأميرة أن تذهب أولاً فإنها

هى الأخطر شأنا » فتأثرت الأميرة تأثراً بليغا عما بدا من استهانته بالأخطار ومن رقة فؤاده ، وأعربت عن تقديرها لجميله واعدة إياه الزواج منها بعد انتهاء متاعبهما ، فلم يصدق الشاب أذنيه وقالت : « هبْ أنك لا تنمى إلى سلالة عظيمة فإن لك قلب رجل عظيم . خذ هذا الثوب الحريرى الذى أتاح لك أن تقهر المارد واحفظه لديك آية على اتفاقنا وتذكاراً إلى تلاقينا » .

قرع الخضر الأجراس ثلاثا فارتفعت السلة ورفعت الأميرة ذراعها إلى جانبها ، ولمست شفتيها مرسلة إليه قبلة فخيل إليه أنه استمع هذه الكلمات : « أنت حبيبى » .

كان الخوف والأمل يتداولان نفسى الملك والملكة وهما يراقبان الحبل ويتجسسان على أبسط حركاته ، وبدت الدقائق لهما زمناً طويلاً حتى إذا بلغت الأجراس مسامعهما طغى عليهما الفرح .

وهرع إلى المكان كل ساكن بالبلدة ، وقد استعد بأحسن ألاعيبه لإدخال البهجة على نفس الأميرة ؛

وأخيراً وصلت واستولى السرور على الملك والملكة كل استيلاء واحتضنا فتاتهما وهما يتضاحكان ويتصايحان.

وتصاعدت الهتافات من كل جانب : « إن الأميرة بخير . يعيش الخضر ! »

وأصدر الملك أمره ان يكون اليوم يوم عطلة عامة ، وابتهاج شامل ، تسجيلا لهذه الحادثة السعيدة .

ولم يكن بين الجمع كله فى ذلك الوقت شخص غير سعيد إلا « ووزان » ، لأنه — بالرغم من انتمائه إلى أب قوى السلطان — لم يؤمل إلا قليلا فى أن تحبه الأميرة ؛ وكان امرء أنانية ، لا يهتم أى اهتمام بخير الناس ، صغير العقل ، مغرماً بالحيل المؤذية .

وناجى نفسه قائلا : « إن الخضر سيأخذ مكانى إذا لم أستطع اقتلاعه من طريق » ، ثم يمم شطر الهوة وحلّ وثاق الحبل من العجلة ، وحين شرع الخضر يصعد فى السلة قذف إلى الهوة بنار حامية سُمع لوقعها صوت هائل وسطع منها بريق خاطف حتى ظن الناس جميعاً أن المارد قد عاد

ثانية ليصب عليهم شر العـذاب ، ففروا من طريقه رعباً دون أن يلقوا إلى الخضر بالاً .

ظل الخضر طول ليله حزيناً ولم تكن سقطته خطيرة ولـكنه يئس كل اليأس من أن يرى النهار مرة أخرى ، وكان ينظر إلى فتحة الهوة فتبدو له خلال النهـار كأنها جوهرة حمراء لا تلبث أن ينتابها السواد عند الغسق ، ثم تكسوها الزرقة إذا الفجر انبثق .

وهز الأجراس مراراً وصاح تكراراً ، ولـكن شيئاً من ذلك لم يُجد عليه شيئاً فى مركزه المحزن

وخطر له فجأة أن من المحتمل وجود طريق آخر فعاد أدراجه إلى بيت الشيطان فأدهشه أن يسمع صوت ألم من مكان قريب .

كان الصوت الواهن يقول : « ساعدنى أيها الخضر ، ساعدنى » فاستقبل الحطاب الباب الكبير المحلّى بالنحاس وقرعه بقوة ، وسمع الصـوت مرة ثانية فأسرع إلى فتح الباب ، فرأى أمامه سجناً ضيقاً يهبط عن مستوى الأرض

فلما حدّق فيه رأى تنيناً ضخماً قد ثُبّت من أقدامه الأربعة إلى الحائط .

وقال التنين للخضر : «أطلق سراحى أيها الخضر تجد منى أحسن المكافأة» ، فشرع باحتراس كبير يفك الأغلال عن الأقدام الجريحة ولم يكد يفرغ من عمله حتى انتفض أمامه غلام جميل أخذ يقص عليه قصته فقال :

« إن أبى هو ملك البحر . وقد وقع لى ما وقع للأميرة التى نجيتها فاستأسرنى المارد الذى قتلته ولقد مررتَ أمس ببابى فصعّدتُ صرخة حين سمعت وقع خطاك ، ولكن الأميرة كانت مستأثرة بكل أفكارك ، فلم استعد شعورى إلا حين سمعت خطى قدميك مرة أخرى . لقد أخرجتنى من عقالى أيها السيد الخضر ، فإنك باق فى ذكراى أبداً أعزك مثل إعزازى لأبى وأمى فإنهما وهبانى الحياة أول مرة وإنك رددت علىّ هذه الحياة .

لقد كنت ألهو سعيداً بجوار الشاطئ حين انقضّ علىّ المارد وقال لى : « هبْنى قليلا من هذا الشراب الذى

يكفل الخلود لشاربه فإنى لأعلم أن عند أبيك زجاجة مفعمة منه يحفظها فى بعض أنحاء بيته » .

ولكنى رفضت أن أنبئه بسر المكان فاستشاط غضباً وحملنى بيدين طويلتى الأظافر وأخضعنى لهذا العقاب الذى رأيته » .

أجابه الخضر : إنى ليسعدنى أننى استطعت تقديم معونة إليك . ولكن يخيل إلىّ أن الأمل فى الخلاص من هذا المكان ضعيف فإنى لم أجد منه مخرجاً » .

فقال الأمير : « دعنا أولا نبحث عن الماء فإن من شأنه أن يجعل الأمور أسهل » .

ولمحا فى ظاهر البيت حديقة كبيرة ، ووجدا فى الحديقة نبع ماء فاستعاد أمير البحر هيئته الأولى وجلس فوق الماء ثم لم يلبث أن تحول إلى سحاب مختلف الألوان ، وقال للخضر : اركب فوق ظهرى وأغلق عينيك إلى أن نبلغ مكاناً نريح فيه » .

صدع الخضر بما أمر وأحس كأن ريحاً شديدة تصك

أذنيه ، وخيل إليه أول الأمر أنه يصعد ، ثم خيل إليه أنه يهبط ، ولما آن له أن يفتح عينيه رأى نفسه فوق أديم واسع من الرمال ، ورأى من أمامه البحر الأزرق . فقال دهشاً : أين نحن ؟ وكان جواب الأمير : « نحن في منزلي وسأقدمك إلى أبي فيغمره السرور بما صنعت من أجلي » .

تأبى الخضر بادىء الرأى عن الذهاب خشية أن يطول جزع أمه عليه ، ولكنه عدل عن إبائه حين قال له الأمير : « إني أعدك أن تراها اليوم » وخالط نفسه إحساس بأن الأمير سيبر بوعده .

وانشق الموج عن أخدود بين حائطين من الأمواه فرشت أرضه بالصخر الممهد ؛ وعلى هذا الممر سار الصديقان حتى بلغا نهايته فوجدا باباً عظيماً قد نقشت عليه بأحرف من ذهب هذه الكلمات :

« منزل سلطان البحور »

كانت جدران البيت تشع ببريق الجواهر ، وقد وقفت ببابه سمكتان ضخمتان تحرسانه وتتقدمان كلما لمحتا قادماً

تتعرفان شخصيته ، ثم تتقهقران لتسمحا له بالدخول شأن النساك فى تحركها تحت الأمواج إلى خلف وأمام .

وفى داخل البيت كان فتية وفتيات يرقصون بيد أنهم لم يكونوا مثل الفتية والفتيات بالضبط فقد كانت لهم ذيول كذيول الأسماك ؛ كما كان فى المنزل جماعات أخرى من السمك ومن حيوان البحر حمل بعضها نبأ عودة الأمير .

هبط ملك البحر الكُبَّار من عرشه الرفيع يجر وراءه ذيله الطويل ذا الحلقات المتشابكة ووجه إلى الخضر عبارات رقيقة ثم قال له :

« إن رغبتك الأولى هى بالطبع أن تعود إلى بيتك وترى والدتك ، ولهذا لن أطيل غيابك عنها ، ولكن دعنى أولا أهبك شيئاً كفاء صنعك » .

وأمر الملك فمثلت بين يديه جماعة من بنات البحر تحمل كل واحدة صندوقاً مملوءاً بجواهر وبحجارة كريمة تفوق جمالا ما رأته أعظم أميرات الدنيا .

ولكن الأمير الصغير همس لصديقه : « لا تأخذها

بل التمس التفاحة الذهبية التي تراها إلى جوار الملك فهي خير من الجواهر جميعاً بل خير من أي مبلغ من المال مهما يطل لأنها خليقة أن تعطيك أي شيء تشتهيه » .

اعتذر الخضر في احترام عميق من عدم قبول العطايا التي عرضها عليه ملك البحور ، فقال له الملك : « إذا كان شيء مما عرضته عليك لم يظفر بقبولك فماذا عساي أن أهب لك ؟ »

فأجابه الخضر : « أيها الملك العظيم إنك لتسعدني كل الإسعاد إذا أعطيتني التفاحة الذهبية » .

فقال الملك في عطف : « هي لك فليس عندي شيء لا يسرني أن تأخذه » .

وصحبه صديقه الأمير الصغير إلى شاطىء البحر ثم قال له في رقة : « إننا نفترق الآن يا عزيزي الخضر ، وإن هذا الفراق ليحزنني إحزاناً عظيماً لأنا لن نتقابل مرة أخرى ولكني سأكون قادراً على معرفة أخبارك ، وإن هذه التفاحة ستتغلب على كل متاعبك ، وليس عليك إلا أن تقول :

«أيتها التفاحة العزيزة هبيني هذا أو هبيني ذاك ، فتجيبك لبيك وتحد ما سألت بين يديك . »

وبهذه الكلمات ودع الأمير صديقه وعاد إلى البحر .

نطق الخضر بأمنيته الأولى فقال : أيتها التفاحة العزيزة اعطيني عربة تحملني إلى بيت أمي . »

فلم تمض دقيقة واحدة حتى أقبلت عربة مجنحة واستقرت فوق الرمال وصعد الحطاب الصغير إليها ، فانطلقت تمخر عباب السحاب كأنها طائر في السماء .

وكانت الأميرة شديدة الأسى على الخضر وقد عاهدت نفسها أن تظل وفية له مؤملة أن يعود يوماً إليها وقالت لوالديها بنغمة التصميم حين أرادا زفافها إلى رجل آخر : «إما أن أتزوج من الخضر وإما ألا أتزوج من أحد » وكانت تطيل اجتماعها بأم الحطاب تتواسيان عن فقد الحبيب المشترك .

وتولتهما دهشة عظيمة حين رأتا ذات يوم عربة مجنحة تهبط من السماء ، ولم تصدقا أنهما في عالم اليقظة

حين رأتا الخضر يخرج من العربة ، ثم يلف ذراعيه حول أمه فتنهال عليه بعثات القبل واللمسات الحبيبة .

وقالت الأميرة لنفسها وهى تراقبه : « ياله من ابن طيب ! ليبلغنني ذروة السعادة ان اقترنت به » .

وبعم الخضر شطر الملك والملكة وقص عليهما أمام رجالات المملكة وعامتها جميع ما وقع له وذكر الطريقة الغريبة التى سقطت بها السلة فكان الاعتقاد العام أنها سقطت بفعل إنسان شرير ، وملأ الخجل نفوس المحبين المزيفين .

وأراد الخضر أن يتحقق من شخصية الفاعل فسأل تفاحته قائلا : « أى تفاحتى العزيزة من هو المسئول عن هذا العمل ؟ » فأقبل « ووزان » وجثا أمام الملك وقال : « إننى أنا الذى حللت وثاق الحبل ، وألقيت شعلة نار فى الهوة لأجعلك تيأس من عودة الخضر » .

فلما سمع الملك اعترافه أمر به أن يقتل ، ولكن الخضر أبدى شديد الرغبة فى أن يتولى بنفسه عقاب « ووزان »

فقبل الملك رجاءه فقال الخضر : « أى تفاحتى العزيزة ا هيئى لـ « ووزان » الشقى أن يبـدى دليلا على خجله مما صنع » . فتقدم « ووزان » فى تأثر عميق والتمس من الخضر أن يطلق سراحه . فقبل الفتى الطيب القلب هذا الرجاء بغير أية مناقشة .

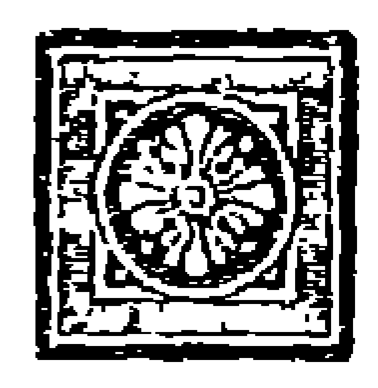
وفى ذلك اليوم عينه تم قران الأميرة والخضر ولبست البلدة كلها كما لبس بيت الملك أجمل زينة وسطعت الأنوار الملونة فى المساء .

ولم تكن هدايا الخضر لأسرة الأميرة دون أية هدايا يمتز أبناء الملوك بتقديمها ؛ وقد قبض بين يديه على التفاحة الذهبية فلم يكن أحد ليساويه مالاً أو يكافئه جواهر . بل إن الأميرة نفسها قد بدت بالقياس إليه جد فقيرة .

وشاركت الأمة كلها فى الحادث السعيد وتمتع الناس بجميع أنواع التسلية ليل نهار ، وامتلأت بالسرور جميع الصدور وبدا أن « ووزان » نفسه يستفيد من الحادث اقصى ما يستطيع أن تستفيد .

وباتت أم الخضر موضع رعاية الملك والملكة ولكن أسعد الجمع كان الخضر نفسه .

وفى حجرة الزوجين كانت أعز حلية هى الرداء الحريرى الذى قدمته الأميرة للخضر تذكاراً لعمله العظيم ولحبهما الصادق .



الدليـــــل

للمعرب

١ - من يوميات محام

ثمن النسخة ٤٥ مـ

٢ - سعد زغلول من أقضيته

ثمن النسخة ٣٠ مـ

٣ - حكايات من الهند

(ترجمة)

ثمن النسخة ١٧ مـ


Bibliotheca Alexandrina
03999001